دور الصوفية في المجتمعات الأفريقية جنوب الصحراء 9 ـ 13 هـ ، 15 ـ 19 م السودان أنموذجا

د . أحمد إلياس حسين
الجامعة الإسلامية العالمية – ماليزيا

مقدمة

يمثل القرن التاسع الهجري (15 م) مرحلة هامة وفاصلة في التاريخ الإسلامي، نتيجة للتحولات السياسية والاقتصادية الكبرى التي شهدها عالم حوض البحر المتوسط في ذلك الوقت ، فعند قيام الدولة العثمانية كقوة عظمى ، في شرق البحر المتوسط، وإسقاطها للإمبراطورية البيزنطية ، بدأ البحر المتوسط يفقد أهميته السياسية والاقتصادية القديمة بتحول تلك الأنشطة إلى غرب أوروبا ، والمحيط الأطلسي إلى العالم الجديد ، كما أدى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح إلى تحول طرق تجارة المحيط الهندي ، عصب حياة حوض البحر الأبيض المتوسط ، إلى المحيط الأطلسي .

وبدأت الدول المطلة على السواحل الشرقية للبحر المتوسط تفقد موقعها الاستراتيجي القديم ، ونتج عن ذلك بداية التدهور الاقتصادي الذي أدى إلى ضعف دول شمال أفريقيا ، وما ترتب على ذلك ، حتى وقوعها فريسة للسيطرة الغربية .

وكانت النتائج أكثر ضراوة على أفريقيا جنوبي الصحراء ، إذ يمثل القرن التاسع الهجري (15م) بداية تدهور نشاط الطرق التجارية العابرة للصحراء الكبرى ، بعد تردي الأوضاع الاقتصادية والسياسية في شمال أفريقيا ، إذ كانت تلك بمثابة الوقود المحرك

لحركة التجارة الصحراوية ، ولما كان قيام وتطور الأنظمة السياسية والاقتصادية والثقافية جنوبي الصحراء ، قد اعتمد في المقام الأول على حركة التجارة ، فقد أدى تدهورها إلى تردي أوضاع المجتمعات الإسلامية ، في أفريقيا جنوبي الصحراء ، ونهاية عصر الدول الإسلامية الكبرى ، مثل مالي وسنغاي وكانم .

وقد ترتب على ذلك بداية انفصال المجتمعات الأفريقية جنوبي الصحراء ، عن الشمال ، حيث مصادر المعرفة والغذاء الفكري ، وإبان هذا الضعف تعرضت المنطقة لضربتين قاصمتين ، هما تجارة الرقيق والهجمة الاستعمارية .

أدى زوال الدول الإسلامية الكبرى جنوبي الصحراء إلى تصدع البنيان السياسي، وقيام وحدات سياسية صغيرة ، ووحدات قبلية ، لم تتمكن من الصمود أمام الأخطار الجديدة ، فتجارة أفريقيا التي ظلت تعبر الصحراء شمالاً لمئات السنين ، تحولت الآن إلى المحيط الأطلسي ، حيث أصبح الإنسان الأفريقي هو السلعة المتداولة ، ودخلت مجتمعات أفريقيا ، جنوب الصحراء ، فترة قاسية من تاريخها ، فقدت فيها القيادات السياسية والاقتصادية ، وبتدهور المراكز الثقافية تردت حركة التعليم وبدأت الأمية تسود تلك المجتمعات ، أضف إلى ذلك الهجمة الاستعمارية الضارية التي كان من بين أولوياتها إضعاف الإسلام ، والعمل على استئصاله ، وهكذا استفحل الداء، وتراجعت تعاليم الإسلام مع الزمن ، إلى الحد الذي بدت فيه جزءاً من المعتقدات الوثنية ، فأصاب الشلل مجتمعات أفريقيا جنوب الصحراء ، فأصبحت جسداً بلا روح ، ممدداً تحت ظلام دامس .

وفي أقصى الطرف الشرقي للمجتمعات الأفريقية في السودان ، كانت الأوضاع تسير على وجه مغاير ، فالقرن التاسع الهجري (15 م) شهد نهاية عصر المسيحية الذي امتد نحو ثمانية قرون ، عاشت فيها المجتمعات السودانية تحت ظل الدولتين المسيحيتين المقُرّة ، وعاصمتها دنقلا ، وعلوة وعاصمتها سوبا جنوبي الخرطوم ، وضمت حدود الدولتين كل مساحة السودان الحالي باستثناء الإقليم الجنوبي .

وقد بدأت المسيحية في الانحسار أمام المد الإسلامي ، منذ إسلام ملوك مملكة المقرّة عام 723 هـ – 1323 م ، وفي خلال العقود التي سبقت سقوط مملكة علوة المسيحية ، في آخر القرن التاسع الهجري (15 م) ، وقيام مملكة الفونج الإسلامية عام 910 هـ – 1504 م والممالك الصغرى التابعة لها ، وفي غرب السودان ، تمكن

المسلمون من تأسيس مملكة دار فور الإسلامية ، ولما كان الإسلام حديث عهد في السودان ، يصارع المسيحية والوثنية ، فقد كانت مهمة نشر الإسلام ، وبث تعاليمه واجباً شاقاً على المملكتين الإسلاميتين ، حديثتي التكوين .

ولذلك فإن القرن التاسع الهجري (15م) يمثل محوراً بارزاً من محاور تاريخ الإسلام في أفريقيا ، كانت فيه الحاجة ماسة إلى إعادة بناء المجتمعات الإسلامية جنوبي الصحراء ، حيث انقطع حبل الوصل بمصدر الزاد في الشمال الأفريقي ، بالنسبة لمجتمعات غرب أفريقيا ، أو لحاجة المجتمع الإسلامي الجديد في السودان إلى الغذاء الروحي ، في الوقت الذي ضعف فيه العالم الإسلامي مصدر الإمداد ، وفي هذه الظروف الملحة أطلت الصوفية على المجتمعات الأفريقية باعتبارها الملاذ والمصدر الوحيد الذي واجه تلك المصاعب ، فكانت الصوفية شعاع الأمل في تلك المجتمعات عن طريق ممثلي مختلف الطرق ، يبثون الحياة ويقدمون ما بوسعهم لإعادة إحياء تلك المجتمعات ، وتجديد بنيتها الثقافية والاقتصادية والسياسية .

تقوم هذه الدراسة بتتبع جهود الصوفية وتحليل دورهم على المجتمعات الأفريقية ، وهل كان هنالك بديل للدور الذي قام به المتصوفة ؟ هل أثر ذلك سلباً على إثراء الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية في تلك المجتمعات ؟ ، وسيأخذ البحث السودان كحالة دراسة (Case Study) ، يحاول من خلال تجربته الصوفية بين القرنين التاسع والثالث عشر الهجريين (15 – 19 م) الإجابة على مثل الأسئلة المطروحة أعلاه ، فالمجتمع السوداني في القرن التاسع الهجري لم يكن مختلفاً عن مجتمعات غرب أفريقيا ، رغم حداثة الإسلام فيه وقدمها في الغرب ، وذلك لأن العلة كانت واحدة مع اختلاف الأسباب .

الصوفية في مجتمعات أفريقيا جنوب الصحراء

ارتبطت كلمات صوفية وأولياء وزهاد في المصادر العربية المبكرة بسير الأجيال الأولى من أصحاب رسول الله ﷺ وتابعيهم ، قال أبو عبد الرحمن الأزدي ت 412 / 1021م : « وقد ذكرت في كتاب الزهد من الصحابة والتابعين قرنا فقرنا وطبقة فطبقة . . . وأحببت أن أجمع في سير متأخري الأولياء كتاباً أسميته طبقات الصوفية »[1] بينما اختار أبو نعيم الأصبهاني ت 430 / 1038 م عنوان « حلية الأولياء

(1) أبو عبد الرحمن الأزدي ، طبقات الصوفية ، تحقيق مصطفى عبد القلدؤ عطا ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ب ت

وطبقات الأصفياء» وذكر أنه جمع فيه من أعلام المحققين من المتصوفة وأئمتهم .

وكان الارتباط أيضا قوياً في تلك الفترة المبكرة بين علمي الظاهر والباطن ، فقد قال أبو حفص النيسابوري (ت 270 هـ) : حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن ، لأن النبي ﷺ قال : « لو خشع قلبه لخشعت جوارحه » .(1)

ولا ينفي ذلك أن البعض كان يرى التصوف في الزهد ، كما أورد أبو نعيم الأصبهاني على لسان عيسى بن مريم في قوله لحواريه ، عندما سألوه عن أولياء الله : « هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها ».(2)

عاش الأولياء المتصوفة الزهاد في القرون الهجرية الأولى في وئام ، قبل أن ينشب الخلاف بين أهل الظاهر ، وأهل الباطن ، الذي سعى الإمام الغزالي في القرن الخامس الهجري إلى تخفيف وطئته ، ومحاولة رأب الصدع بينهما ، وكانت الأغلبية العظمى ، كما يتضح من التراجم المبكرة ، من أولئك الأولياء المتصوفة ، عناصر فاعلة في الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية ، وفي المجال السياسي اكتفى بعضهم بتقديم النصح والعظة للحكام ، بينما ظلت أغلبيتهم معتزلة لقصور السلاطين والحكام ، وكان الأولياء المتصوفة في شمال أفريقيا جزءاً من ذلك المناخ الصوفي في العالم الإسلامي .

وكانت المجتمعات المسلمة في أفريقيا ، جنوبي الصحراء ، تختلف عن مجتمعات شمالي أفريقيا والشرق الأوسط ، فانتشار الإسلام جنوبي الصحراء لم يتم بنفس الطريقة التي انتشر بها في الشمال ، فقد حدث صراع في شمال أفريقيا بين الإسلام والأنظمة المحلية ، انتهى بانتصار الإسلام ، وقبول تلك المجتمعات لأنظمته ، فغير الإسلام في وقت قصير النظم القديمة لتلك المجتمعات ، مكوناً مجتمعاً إسلامياً جديداً . أما في أفريقيا جنوبي الصحراء ، فلم يحدث صراع ، وكانت طبيعة انتشار الإسلام سلمية ، تمت على مراحل ، وبعد وقت طويل ، فكان التغير بطيئاً ولم يشمل جميع الأنظمة القديمة ، فقد غير الإسلام بعض تلك الأنظمة في بعض المناطق، وتكيّف معها في بعضها الآخر .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ارتبط انتشار الإسلام جنوبي الصحراء بجهود

ج1 ص21 .

(1) أبو نعيم ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ط4 بيروت ، دار الكتب 1405 ج1 ص3 .

(2) نفسه : ج1 ص10 .

أفراد ، كانوا في الغالب علماء وتجاراً أو « العلماء التجار » ، سواء تم ذلك عن طريق الاتصال المباشر بالزعماء والحكام ، أو عن طريق الاحتكاك بالمواطنين في المراكز التجارية والأسواق . ولذلك ارتبطت الروايات المبكرة لانتشار الإسلام بجهود العلماء ، فالرويات المحلية تشير إلى أن مايات (حكام) برنوا أسلموا على يد الفقيه محمد ابن ماني قبل القرن الخامس الهجري (11م) [1]، وملك مالي اعتنق الإسلام على يد أحد العلماء قبل القرن الخامس الهجري[2]، وأن دخول الإسلام في مملكة كانم تم على يد الهادي العثماني[3]. ورغم أن الروايات لم توضح كيف اعتنق وارجابي بن رابيس ملك التكرور الإسلام ، إلا أن جهود زعماء المرابطين قد تكون السبب في ذلك ، ومن ثم أصبح للعالم أو الشيخ (رجل دين) مكانة مرموقة في الوسط الاجتماعي الأفريقي جنوبي الصحراء .

ورغم أن الإسلام بدأ ينتشر في الصحراء وجنوبها ، منذ القرن الأول الهجري ، إلا أن هذين العالمين ـ اختلاف طبيعة انتشار ومكانة الشيخ ـ ظلا يؤثران على المجتمعات الأفريقية حتى عصر قيام الدول الإسلامية الكبرى جنوبي الصحراء ، بل أصبح الأثر أكثر وضوحاً بعد انتهاء عصر الدول الإسلامية الكبرى ، بعد القرن التاسع الهجري 15 م .

وكما كان انتشار الإسلام جنوبي الصحراء مختلفاً عن انتشاره شماليها ، كذلك كان انتشار الصوفية جنوبي الصحراء ، ووظيفتها مغايراً لما كان عليه الحال في شماليها . كان انتشار الصوفية مبكراً في شمالي أفريقيا ، بعد أن عمق الإسلام جذوره في تلك المجتمعات . وكانت الأوضاع السياسية والاقتصادية في شمال أفريقيا ــ رغم ما أصابها من ضعف منذ القرن التاسع الهجري ـ أوضاعاً مستقرة ، إذا ما قورنت بأوضاع أفريقيا جنوبي الصحراء .

فقد لاحظنا أعلاه ، أن عصر الدول الإسلامية الكبرى جنوبي الصحراء قد انتهى بعد القرن التاسع الهجري (15 م) ، فقد انتهى عصر قوة دولتي مالي وكانم في القرن الثامن الهجري (14 م) ، كما انهارت دولة سنغاي سريعاً بنهاية القرن العاشر

(1) إبراهيم علي طرخان ، إمبراطورية البرنو الإسلامية ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1975 ص76-78 .

(2) البكري ، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، الجزائر ، 1857 ص178 .

(3) العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 2568 تاريخ و559 معارف عامة ص491 .

الهجري (16 م) ، قامت تلك الدول ـ بالإضافة إلى مهامها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ـ بدور بارز في نشر الإسلام ، والإشراف على حركة التعليم ، كما يبدو ذلك واضحاً في المصادر العربية المبكرة . فقد اشتهر ملوك كانم في القرن السادس الهجري بعمليات واسعة لنشر الإسلام ، وكانوا « يحبون العلماء والصالحين ويبذلون لهم العطاء والصدقات »[1] ، وذكر أن قوات دونمة الثاني ملك كانم بلغت 41 ألف جندي[2]. وقد لاحظ ابن بطوطة الذي زار غرب أفريقيا بين عامي 753 – 756 هـ (1352 – 1355 م) كثرة العلماء في مملكة مالي[3]، كما لاحظ ذلك أيضاً ليو الأفريقي بعد نحو قرنين[4] .

وكان دور المراكز الثقافية بارزاً ، وبخاصة في مجال التعليم ، فقد لعبت تلك المراكز ، مثل جني وتنبكت[5] وايوالاتن وتادمكة وأغادس ، دوراً هاماً في تاريخ المنطقة ، فكانت بحق « دول مدن » ، فقد قدرت مساحة جني بـ 500 × 250 ميل^2[6]، واشتهرت مساجدها بمجالس العلم وبمجالس كبار الأساتذة ، فقد ذكر السعدي في القرن التاسع الهجري (15 م) برنامج أحد الأساتذة : « كان يخرج في نصف الليل من داره إلى الجامع ، فيجلس الطلبة حوله يأخذون منه العلم إلى الإقامة لصلاة الصبح ، ثم يعودون إليه بعد الصلاة إلى الزوال ، ومنها يرجع لداره ، ثم بعد صلاة الظهر كذلك إلى صلاة العصر . هكذا عادته مع الطلبة »[7].

---

(1) محمود كعت ، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ، طبعة أنجي 1913 ص179 .

(2) ابن سعيد ، بسط الأرض في الطول والعرض ، تطوان ، 1954 ص 28- 29 ، إبراهيم علي طرخان ، مملكة البرنو الإسلامية ص85 .

(3) ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، بيروت 1964 ص695 .

(4) Leo Africanus, The History and Description of Africa. Done into English 1600 by John Pory 3rd . London 1896, Vol. 3, B. 7 , p. 823.

(5) جرت العادة على كتابة تنبتكو بالميم "تمبكتو" غير أن كتابتها أتت بالنون عند كل من ابن بطوطة والسعي وكعت ، وقد كتبتها المصادر الثلاثة الأخيرة دون واو في نهايتها ، ويبدو أن ذلك كان هو نطق أهل السودان للكلمة "تنبكت" ، وكتبها ابن بطوطة بالواو "تنبكتو" ، واعتقد أن الرسم الصحيح للكلمة ينبغي أن يكون "تنبكت" ، وهو الرسم الذي كتبته المصادر السودانية القديمة ، عبد الرحمن السعدي ، تاريخ السودان ، طبعة أنجي 1898 ص9 ، محمود كعت ، تاريخ الفتاش ص178 ، ابن بطوطة ، تحفة الأنظار ص694 .

(6) Ibid., p. 822.

(7) عبد الرحمن السعدي ، تاريخ السودان ص15 .

وفي الأماكن التي لا يوجد فيها مساجد ، مثل القرى الصغيرة كان الأطفال يتلقون العلم على يد الفقهاء في أماكن ، تعد خصيصاً لهذا الغرض[1] . وقد كانت لتمبكتو مكانة خاصة في نفوس السودانيين ، فهى بالنسبة لهم كما قال عنها السعدي : « ما دنستها الأوثان ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن ، مأوى العلماء والعابدين ومألف الأولياء والزاهدين »[2]

بدأت كل تلك الأنشطة في التدهور ، منذ القرن التاسع الهجري ، بنهاية عصر الدول الإسلامية الكبرى ، وبضعف المراكز الثقافية جنوبي الصحراء ، ، فعم الاضطراب الحياة السياسية وساد الظلام والجهل ، وأعادت الوثنية سيطرتها على مجتمعات أفريقيا جنوب الصحراء ، فملأت الفراغ الذي نتج عن ضعف الإسلام وانحسار تعاليمه . وترتب على ذلك بداية قيام الممالك الوثنية ، منذ القرن الحادي عشر الهجري (17 م) في تلك المجتمعات بعد انهيار سنغاي، آخر الدول الإسلامية الكبرى ، فقامت مملكة البمباري الوثنية في وسط المنطقة التي كانت مركزاً لمملكة مالي الإسلامية ، كما قامت مملكتا الموسي وداهومي الوثنيتان إلى الجنوب من مملكة البمباري .

ومع بداية ظهور تلك الأزمات الكبرى أطلت الصوفية على مجتمعات أفريقيا جنوب الصحراء ، والشيء المثير ، الذي يتطلب تفسيره بعض التأمل ، هو أن تعاليم الصوفية وجدت القبول والانتشار بين بعض قبائل الصحراء المطلة على المجتمعات الأفريقية ، في ذات الوقت الذي بدأ فيه انحسار المد الإسلامي المنتظم . وكانت القادرية في طلائع الطرق الصوفية التي بدأت في الانتشار جنوبي الصحراء ، تلتها الطريقة التيجانية . وليس من غرض هذه الدراسة تتبع مراحل ذلك الانتشار ، أو تقصي كل مناطقه ، فغرض الدراسة هو إبراز بعض الأدوار التي قامت بها الصوفية ، وسيتم ذلك بتتبع سريع لدور هاتين الطريقتين في إعادة بناء تلك المجتمعات .

ارتبط انتشار الطريقة القادرية في الصحراء الكبرى وجنوبها ، بجهود الشيخ محمد ابن عبد الكريم المغيلي ت 910 هـ / 1504م ، الذي أدخل الطريقة إلى قبيلة الكونتا الصحراوية ، واتصل بحكام الهوسا والبرنو ، وكان لكتاباته الدينية دور بارز على شعوب وحكام تلك المناطق . وقد انتشرت الطريقة القادرية البكائية ــ على يد عمر الشيخ

(1) نعيم قداح ، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام ، نشر ضمن سلسلة الثقافة الشعبية ، رقم 5 ب ت ص141 .
(2) عبد الرحمن السعدي ، تاريخ السودان ص13 .

المتوفى نحو 961 هـ / 1553 م ــ بصورة واسعة في الصحراء وجنوبيها من زاويته بالقرب من تنبكت ، وأنجبت تلك الزاوية عدداً من القيادات التي مازالت آثارها واضحة على كثير من مجتمعات غربي أفريقيا[1] .

بدأ تأثير الطريقة القادرية واضحاً على مناطق وسط النيجر وبلاد الهوسا ، منذ منتصف القرن الثاني عشر الهجري (**18**م) ، على يد سيدي مختار الكونتي الذي كان عالماً بارزاً ، تميز بعدد من الكفاءات التي خلقت منه قائداً مطاعاً ، واكتسب تلاميذه ــ الذين انتشروا في غرب أفريقيا ـ احتراماً وقبولاً ، وكانوا يمارسون التجارة مما أتاح لهم التجول والاختلاط بالمواطنين ، لا سيما في المناطق الوثنية الداخلية .

وقد نظم تجار الطريقة القادرية ـ في القرن الثاني عشر الهجري (18م) ــ طرق التجارة الطويلة في داخل المجتمعات الوثنية ، فربطوا ما بين المدن الرئيسية والداخل ، وقاموا بدور بارز في نشر الإسلام بين الوثنيين ، وكانوا يؤسسون المدارس لحفظ القرآن، وتعليم ما ينبغي معرفته من أمور الدين ، وقد أشير إلى أن الإسلام ـ بجهود قادة الطريقة القادرية ـ لم يعد دينا لمجموعة قليلة من التجار ، أو لمجموعة قليلة من العلماء في المدن الرئيسية ، بل أصبح دينا يعتنقه الملوك الوثنيون ، لما يكسبهم من مكانة[2] .

لم يقتصر نشاط زوايا القادرية ـ في القرنين الحادي والثاني عشر الهجريين (17 – 18 م) ـ على منطقة وسط النيجر فقط ، بل تعداها إلى منطقة نهر السنغال ، حيث نظم أتباع الطريقة من التكرور والفولاني نشاطهم ، ونجحوا كثيرا في نشر الإسلام ، وبدأوا المحاولات المبكرة لمحاربة المجتمعات الوثنية ، وتأسيس الدول الإسلامية . ومن جانب آخر كان لتعاليم المغيلي ورسائله ، ولكتابات سيدي مختار الكونتي ــ التي قيل إنها بلغت 300 رسالة ـ تأثير كبير على مجتمعات الهوسا والبرنو . وكما لا حظ كورتن فإن حركات الإحياء القادرية في غرب أفريقيا في القرن الحادي عشر الهجري (17م) سبقت حركات الإحياء الكبيرة في الشرق الأوسط في القرن التالي والتي لم يكن للطرق الصوفية أثر عليها . وهذا يؤكد ما أشرنا إليه سابقاً ، من أن دور الطرق الصوفية جنوبي

(1) J.S. Trimingham. Islam in Africa, Oxford: Oxford University Press 1959, p.94 n. 2; J.D. Fage. A History of Africa. London: Unwin Hyman 1988 p. 193.

(2) J.D. Fage. A History of Africa. P. 194.

الصحراء كان متميزاً ، ومغايراً لدورها في الشرق الأوسط[1] .

غير أن تأثير الطرق الصوفية القادرية ثم التيجانية ـ التي دخلت المنطقة في بداية القرن الثالث عشر الهجري (19م) ــ تجلى بصورة واضحة في قيام حركات الجهاد الكبرى التي قادها تلميذا القادرية عثمان دان فوديو وحمدو شيخ ، وتلميذ التيجانية الحاج عمر ، والتي نجحت في إعادت بناء المجتمعات الإسلامية، وتأسيس دول إسلامية قوية قامت بدور متميز في تلك المرحلة الهامة من تاريخ المنطقة ، في القرن الثالث عشر الهجري (18م) .

بدأ تحرك الفلاني من السنغال جنوبا ، منذ القرن التاسع الهجري (15م) حيث استقروا ، وتكاثرت أعدادهم في القرون التالية . وأدى اختلاطهم بالسوننك المسلمين إلى الانتشار السريع للإسلام بينهم ، وبدأ علماء الفلاني ينظمون مجتمعاتهم ، ويسيطرون عليها ، وأصبح نشاطهم واضحاً مع السوننك في نشر الإسلام بين الوثنيين في المنطقة . وقد ارتبط ذلك النشاط المبكر بجهود أتباع الطريقة القادرية ، والذي توج بنجاح المصلح القادري الكبير مالك سي ، نحو نهاية القرن الحادي عشر الهجري (17م) بتنظيم الفلاني وتأسيس دولة إسلامية في فوتا تورو وتلقب بأمير المؤمنين . ولم يكن مالك سي المصلح الوحيد ، بل أخرجت المدرسة القادرية عدداً من القادة الذين قاموا بتأسيس الدويلات الإسلامية ، قبل جهاد المصلح المشهور عثمان دان فوديو ، في بداية القرن الثالث عشر الهجري (19م) [2] .

ينتمي عثمان دان فودو إلى الفلاني الذين هاجروا منذ وقت طويل ، واستقروا في بلاد الهوسا ، حيث ولد عثمان دان فوديو في جبير بالقرب من سوكوتو عام 1178 هـ / 1754م ، وتلقى هو وأخوه الأصغر عبد الله تعليمهم على يد الشيخ القادري جبريل . وقد تكونت شخصية عثمان الدينية ، والقيادية من خلال كتابات رواد القادرية المبكرين ، مثل المغيلي والكونتي بالإضافة إلى التجارب المتكررة التي قام بها قادة الجهاد القادرية في السنغال وفوتا تورو .

---

(1) Philip Curtan et al. (ed.) Africa History from Earliest Time to Independence. London: Longman, 1996 p. 180; J.D. Fage. A History of Africa. P. 193, 197; Philip curtin et al. (ed.) African History from Earliest Time to Independence. P177.

(2) J.S. Trimingham. Islam in Africa, p. 97; J.D. Fage. A History of Africa. P. 198-199 .

لاحظ عثمان عدم التزام حكام جبير ـ رغم وجود بعض العلمـاء إلى جـوارهم ــ بتعاليم الإسلام الصحيحة ، وتمخضت اتـصالاته المبكـرة مـع حـاكم جـبير إلى اقناعـه بالقيام ببعض الإصلاحات ، والعمل على قيام مجتمع مسلم ملتزم بتعاليم الإسلام . غـير أن الصفاء لم يدم في العلاقات بين الطرفين ، في الوقت الذي كـان فيـه عثمـان يحـرص على إعداد المجتمع الفلاني كمجتمع يلتزم بتطبيق قواعد الشريعة بصورة سـليمة . وقـد توترت العلاقات بين عثمان وحاكم جوبير ، وأغارت قوات الحاكم على عثمان .

أدى ذلك إلى ارتحال عثمان وإعلانه الجهاد عام 1219 هـ / 1804 م ضد الوثنيـة ونادى بالهجرة إليه ، فبدأ الصراع المسلح بين حكام البرنو وعثمان . وكان النصر حليفـه في أول معاركه ضد جوبير ، فتلقب بأمير المؤمنين واكتسب شهرة واسعة في بلاد الهوسا التي بدأت تتساقط تحت يديه ، الواحدة بعد الأخرى في أقل من عقد من الزمان ، فأسس دولته التي اتخذت من سـوكوتو عاصـمة لهـا ، واشـتهرت في المؤلفـات لا حقـاً باسـم « خلافة سوكوتو » .

القائد الآخر الذي أخرجته المدرسة القادرية هو شيخو حمدو الذي ينتمـي أيـضا إلى عشائر الفلاني الذين هاجروا إلى المنطقة منذ عدة قرون . تلقى حمـدو تعليمـه في زوايا القادرية التي أنجبت عثمان دان فوديو ، والذي تـأثر بـه حمـدو كـثيراً . بـدأ نـشاط حمـــدو في ماســـينا الـــتي تقـــع علـــى نهـــر النيجـــر إلى الجنـــوب الغربـــي مـــن تنبكتو . وكانت ماسينا وجني ـ المركز القيم المشهور إلى الجنوب من ماسـينا ــ تحـت السيادة الاسمية لتنبكتو[1] .

أصبحت الوثنية هى السمة البارزة لمجتمعات وسط وأعالي نهر النيجر منذ نهايـة عـصر مملكـة مـالي الإسـلامية ، ممـا جـذب المـصلحين نحـو العمـل في تلـك المناطق . اتخذ شيخو حمدو من ماسينا مركزاً لانطلاقه ، حيث وجد الدعم من العشائر الفلانية والسند ، بل في بعض الأحيان العون العـسكري مـن عثمـان دان فوديـو . تمكـن حمدو من الاستيلاء على ماسينا وجيني ، وتوسع علـى أعـالي نهـر النيجـر وضـم إليـه تنبكتو . تلقب حمدو أيضا بأمير المؤمنين ، وكون دولة كبيرة امتدت من صحراء تنبكتو شمالا إلى جنوبي نهر النيجر ، وأسس عاصمة لدولته إلى الجنوب من جني عرفـت بـ « جمد الله » .

(1) J.D. Fage. A History of Africa. P. 208.

أما الابن الثالث للصوفية فقد كان تيجانياً ، وهو الحاج عمر ــ ت 1281 هـ / 1864 م ــ الذي يعتبر من أشهر قائدي حركات الجهاد والإصلاح في مناطق التكرور . ودخلت الطريقة التيجانية موريتانيا في مستهل القرن الثالث عشر الهجري (نهاية **18م**) ، ثم بدأت زواياها تنتشر في منطقة السنغال إلى جانب القادرية التي كانت قد سبقتها إلى تلك المناطق . غير أن الطريقة التيجانية بدأت في الانتشار الواسع على يدي الحاج عمر ، الذي اكتسب مكانة مرموقة وشهرة واسعة في بلاد التكرور .

أدى الحاج عمر فريضة الحج ، وأقام بمكة نحو ثلاثة سنوات التقى فيها بكبار العلماء في مكة ، كما اتيحت له الفرصة بلقاء كثير من قادة المسلمين في مواسم الحج . وفي طريق عودته مر بمصر ، حيث زار الأزهر والتقى بالعلماء والصوفية .

وقبل وصوله تكرور زار سكتو ، حيث تزوج بنت السلطان محمد بللو ، ومكث هنالك عدة سنوات . وتقول الروايات إن الحاج عمر التقى أثناء موسم الحج في مكة محمد بن خليفة الغالي ، وكيل الحاج علي التلمساني الذي عينه خليفة على السودان الغربي[1] .

استقر الحاج عمر في البداية في فوتا تورو ، حيث بدأ نشاطه بين الوثنيين وأنشأ الزوايا لبث حركة التعليم ونشر الإسلام ، واكتسب شهرة واسعة وتأييداً كبيراً لما ارتبطت به شخصيته بحجه وصلاته بالعلماء في العالم الإسلامي ، فازداد أتباعه بصورة ملحوظة . اكتسب الحاج عمر خبرة واسعة خلال تجواله الذي دام نحو عشرين سنة ، منها اثنتي عشرة سنة مع محمد بللو . وكانت حصيلة ذلك كله في ميادينه التي فتحها في بلاد التكرور .

كون الحاج عمر جيشاً من التكرور أحسن تدريبه عن طريق الأفراد الذين تدربوا على يد الفرنسيين في سانت لويس وغيرها ، كما بذل جهداً كبيراً في توفير الأسلحة الحديثة التي زودها به التجار ، فقد كان يدفع ثمنها ذهباً من المناجم التي أصبحت تحت يديه[2] . أعلن الحاج عمر الجهاد ضد الوثنيين عام 1269 هـ / 1852 م وتوسع

---

(1) Ibid. p. 98.

(2) إلهام محمد ذهني ، جهاد الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي (1850- 1914) الرياض ، دار المريخ للنشر ص49 .

في فوتا جالون وفوتا تورو ، ولما كان النفوذ الفرنسي قد تزايد في السنغال ـ في المناطق الغربية لنشاطه ـ فقد بدأ يحول مراكز نشاطه بعيداً عنهم نحو الشرق ، في مناطق الوثنيين على أعالي نهر النيجر . وتمكن الحاج عمر من تأسيس دولة إسلامية كبيرة امتدت على مساحات واسعة في منطقة النيجر الأوسط ، وهكذا أثمرت جهود زعماء الصوفية في جنوبي الصحراء ، في بث الحياة في تلك المجتمعات ، وإعادة قيام الدول الإسلامية فيها ، ورغم أن تلك الدول لم تعمّر طويلاً نسبة للأخطار التي تعرضت لها ، إلا أنها تمكنت من أداء دورها بنجاح في تطوير المؤسسات السياسية ، وإحياء المناهج الإسلامية في هذا الجانب ، كما قامت بدور طبيعي في محاربة الاستعمار ، ونشر الإسلام وتعاليمه ومحو الأمية في تلك المجتمعات

وقد أسهمت الدول الثلاث ـ دول عثمان دان حوديو وحمدو والحاج عمر ــ في نشر الإسلام بين وثنيي تلك المناطق ، كما أعادوا تطبيق تعاليمه بصورة سليمة عن طريق مناهجهم الإسلامية في الحكم والتربية . فقد طبقت تلك الدول الشريعة الإسلامية تطبيقاً واسعاً في إدارتهم ، ولعل اتخاذهم لقب أمير المؤمنين يشير بوضوح إلى نوع الحكم الذي سعوا إلى تطبيقه .

وقد اهتدت خلافة سوكوتو بتجارب الدول الإسلامية السابقة ، وبالتراث الذي دونه العلماء ، وبخاصة كتابات المغيلي والكونتي في هذا الخصوص ، بالإضافة إلى اجتهاداتهم الشخصية ، فقد ساهم أولئك الرواد بجهود مقدرة في تلك الميادين .

وقد استفاد القادة السياسيون المتصوفة من تجربة خلافة سوكوتو ، كما فعل شيخ حمدو الذي قسم دولته إلى مديريات على كل مديرية أمير وقاض ومجلس للمساعدة في الإدارة ، وكان القضاء مستقلا عن السلطة التنفيذية ، ضمانا لحياده وفقا للتعاليم الإسلامية .

وكان الدور الهام للطرق الصوفية في ذلك الوقت في ميدان التعليم ، إذ كان ذلك النشاط مقصوراً على نشاط أتباع تلك الطرق . فكانت الزوايا مؤسسات تعليمية وتربوية بكل ما تحتوي هاتين الكلمتين من معان ، ففي تلك الزوايا يتلقى الأطفال مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن ، والمتطلبات الأساسية في علوم الشريعة . ويواصل عدد من الطلبة الدراسة كل على حسب قدراته ، ويتعلم الكل طرق وأساليب الطريقة في العبادة مع التركيز على أسلوب التربية والسلوك القويم للمتعلمين ، وتقدم الزوايا أنواعاً مختلفة من المعرفة ، وتتيح الفرص للتخصص الدقيق لمن يبحث عن ذلك . كما

قامت تلك الزوايا بربط تلك المؤسسات التعليمية بنظائرها في باقي أنحاء العالم الإسلامي ، سيما في شمال أفريقيا ، فكان بعض الطلبة يذهبون إلى تلك المدارس لاستكمال تخصصاتهم ، كما جرت العادة أيضا أن يقوم بعض علماء تلك المدارس بزيارة مراكز جنوبي الصحراء التعليمية .

والجانب الآخر الذي برزت فيه الطرق الصوفية جنوبي الصحراء ، هو التصدي للاستعمار ، وربما لا يقل جهود الصوفية في هذا المجال عن إنجازاتها في نشر الإسلام وفي ميادين التربية والتعليم . ومن المعلوم أن الطرق الصوفية قادت حركات النضال والحروب ضد الاستعمار في أفريقيا ، وهذا هو الذي ميز أعمال الصوفية في أفريقيا عنها في باقي مناطق الشرق الأوسط . فزعماء القادرية أمثال عثمان دان فوديو شيخو حمدو ، وزعماء التيجانية أمثال الحاج عمر تصدوا للاستعمار الفرنسي والبريطاني ، ولم يتمكن المستعمرون من ترسيخ أقدامهم إلا على دماء أولئك الأبطال .

الصوفية في المجتمع السوداني

دخول الإسلام السودان

عندما دخل المسلمون مصر كانت ، هناك ثلاث ممالك مسيحية في السودان : مملكة نوباتيا ، وهى التي عرفت في المصادر العربية باسم مريس ، وقد وضح الجاحظ أن النوبة هم المريس المجاورون لحدود الإسلام ، وذكر أن حدها الشمالي أرض أسوان[1] . ووضح الرحالة ابن سليم الأسواني (ت 386 ــ 996 م) ــ الذي تجول في مناطق شمال السودان ــ أن مملكة نوباتيا تمتد جنوباً حتى حدود مملكة المقرة[2]، وكانت عاصمتها مدينة فرس إلى الشمال قليلاً من مدينة وادي حلفا الحالية، والمدينة الثانية الكبرى فيها ، عرفت باسم قصر إبريم شمال فرس .

والمملكة الثانية هى مملكة المقرة ، وتمتد من حدود نوباتيا شمالاً حتى مدينة الأبواب (كبوشية حالياً) ، جنوبي مدينة عطبرة ، وعاصمتها دنقلا . وقد وضح ابن سليم أن « النوبة والمقرة جنسان بلسانين ، كلاهما على النيل ، فالنوبة هم مجاورون لأرض

(1) الجاحظ ، اقتباس من عبد السلام "الفيض المديد في أخبار النيل السعيد" في مصطفى مسعد ، المكتبة العربية السودانية ، القاهرة 1972 ص105 .

(2) ابن سليم السواني ، اقتباس من عبد السلام "الفيض المديد في أخبار النيل السعيد" ص398 .

الإسـلام»[1]. والمملكـة الثالثـة مملكـة علـوة ، وتمتـد مـن جنـوب المقـرة متوسـعة على مناطق شاسعة بين نهر عطبرة والنيل الأزرق والنيل الأبيض ، وامتدت حدودها حتى وصلت سواحل البحر الأحمر شرقاً ومناطق دار فور غرباً ، وكانت عاصمتها مدينة سوبا تقع في الضواحي الجنوبية لمدينة الخرطوم الحالية .

حاصر المد الإسلامي المسيحية في السودان ، منذ القـرن الأول الهجـري (الـسابع الميلادي) في الشمال ، بعد استقرار المسلمين في مـصر ، وامتـداده إلى الحـدود الغربيـة لممالك نوباتيا والمقرة وعلوة في القرنين الأول والثاني الهجريين (7 ـ 8 م) ، بعد توغل الإسلام في الصحراء الليبيية ، وقيام مملكة كانم الإسلامية في تشاد . كما امتد الإسلام في وقت مبكر على سواحل البحر الأحمر ، ومناطق معـادن الـذهب الواقعـة بـين سـواحل البحر الأحمر شرقاً وأسوان غرباً .

أمـا الاتـصال المباشـر بـين المـسلمين والمجتمـع المـسيحي في الـسودان، فقـد بدأ مباشرة بعـد دخـول المـسلمين مـصر ، فقـد أُرسـلت حملتـان ضـد مملكـة نوباتيـا المجـاورة للحـدود المـصرية ، عـامي 21 هــ ، 641م و31 هــ ، 781 م . وتمخـضت الحملتان وفقاً للروايات المبكرة ـ ليزيد بن حبيب (ت هـ **128** ، **745**م) والليث بن سعد (ت **166** هـ ، **781**م) وابن أبي لهيعة (ت **174** هـ **790** م) ونقلتها المصادر المبكرة مثل الواقدي (ت **207** هـ **823** م) وابن عبد الحكـم (**254**هــ **956** م) والـبلاذري عـن اتفـاق صلح بين المسلمين والسودانيين ـ عرفوا في مصادر ذلك الوقت بالنوبة ــ اتفـق الطرفـان فيه على وقف الحرب ، وتبادل الرقيق مقابل بعض المؤن الغذائية[2] .

وقد اشتهر هذا الصلح في المصادر العربية باسـم معاهـدة الـبقط ، واحتـوى علـى شروط كثيرة نقلها في وقـت لاحـق ــ أكثـر مـن 600 سـنة ــ ابـن الأثـير ت 630 هــ ـ 1232 م . والمقريزي ت 854 هـ ـ 1442 م . ولا ترجع كل شروط ما عـرف بمعاهـدة البقط إلى تلك الفترة المبكرة للعلاقات بين الطرفين ، بما في ذلك البند الذي يفهـم منـه دخول المسلمين دنقلا وإقامة مسجد بها ، وقد أشـارت المـصادر إلى بعـض التعـديلات

(1) ابن سليم الأسواني ، كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيـل ، اقتبـاس المقريـزي ، الخطـط ، في مـصطفى مسعد ، المكتبة العربية السودانية ، ص98 .

(2) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، في مصطفى مسعد ، المكتبـة العربيـة الـسودانية ص8 ، الـبلاذري ، فتـوح البلدان ، في مصطفى مسعد ، المكتبة العربية السودانية ص26 .

التي تمت في الفترات اللاحقة ، مثل التعديل الذي تم عام 65 هـ **684** م والـذي اعـترض فيه والي مصر لتقديم الخمر للسودانيين ضمن المؤن التي التزم بها المـسلمون . كمـا تم تعديله أيضا في العصر العباسي والفاطمي . وتوضح تلك التعديلات أن معاهـدة الـبقط هي مجمـوع مـن الاتفاقيـات الـتي تمـت بـين المـسلمين في مـصر ، والمـسيحيين في السودان ما بين القرن الأول والثاني عشر الهجريين(7 ـ 18 م) [1].

تميزت العلاقات بين المسلمين في مـصر والمـسيحيين في الـسودان في القـرون السبعة التي انتهت بنهايـة إسـلام ملـوك المقـرة ، عـام 715 هــ 1315م بـالتوتر الـشديد، والحـروب المـستمرة الـتي لم تـتح للإسـلام الفرصـة للانتـشار جنـوبي حـدود مـصر الحالية . فقد نقلت المصادر العربية بعض أحـداث ذلـك الـصراع الـذي كـان في أغلبـه غارات الجيوش الإسلامية على السودان ، إلا أنه في بعض الأحيان يحدث العكس ، كما حدث في آخر العصر الأموي ، حيث أغارت قوات المقرة على الأراضي المصرية[2].

وقد دارت العلاقات بين الطرفين علـى ذلـك التـوتر ، فرسـالة ملـك المقـرة إلى والي مصر أول العصر العباسي ، تظهر ذلك[3] . واستمرت الحروب بين الجانبين إبـان حكـم الـدول الإخـشيدية والفاطميـة والأيوبيـة لمـصر، بـين القـرنين الرابـع والـسادس الهجريين (10 ـ 12 م) . وقد أدى تمركز القبائل العربية المؤيـدة للفـاطميين والمعاديـة للأيوبيين إلى تصعيد ذلك الصراع ، إذ انضمت ملكة المقرة المسيحية إلى قبيلة بنو كنز

(1) البلاذري ، فتوح البلدان ، في مصطفى مسعد ، المكتبة السودانية ص27 ، النويري نهاية الأرب في فنـون الأدب في مصطفى مسعد المكتبة السودانية ص222 ، المقريزي ، كتاب المـواعظ والاعتبـار في ذكـر الخطـط والآثـار ، في مصطفى مسعد ، المكتبة السودانية ص305 ، وانظر كذالك أحمد الياس حسين ، " صلح عبد الله بـن أبـي الـسرح مع مملكة نوباتيا 31هـ /652م " مجلة حروف ، دار النشر جامعـة الخرطـوم ، العـدد 2 ـ3 ، 90 / 1991 ص27.

(2) ساويروي بن المقفع ، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ، في مصطفى مـسعد ، المكتبـة العربيـة الـسودانية ص74 . بعد دخول المسلمين مصر وبداية الصرع جنوبا تم توحيد مملكتي نوباتيا والمقرة في مملكة واحـدة تحـت قيـادة ملوك المقرة ، وقد تم ذلك تقريبا نحو نهاية القرن الهجري الأول ، انظر أحمد إلياس حسين "صلح عبد الله بن أبي السرح مع مملكة نوباتيا ..."

(3) J. Mortin Plumley, "An Eighth Century Arabic Letter to the King of Nubia" Journal of Egyptian Archaeology. Vol. 4 p 243.

العربية ضد الأيوبيين[1].

وازدادت العلاقات اضطراباً في عصر المماليك الذين بدأوا يتدخلون بصورة دائمة في أوضاع جنوبي مصر ، خاصة أن معارضة القبائل ضد حكمهم كانـت قـد تمركـزت أيضاً في الجنوب . ويبدو أن المماليك قد أعدوا خططهم لإخضاع الجنوب ، إذ استولوا على سواكن ، وردوا هجوماً قام به جيش المقرة وتعقبـوا الجـيش حتـى منطقـة مـريس شمالي مملكة المقرة ، وعينوا عام 674 هـ 1275 م أحد أفراد البيـت المقـري المنـافس للملك حاكماً عليها[2] .

إسلام ملوك المقرة وانتشار الإسلام

وفي عامي 686 و688 هـ (1287 ، 1289 م) وجه المماليك حملتين إلى مملكـة المقرة ، تمكنتا من دخول دنقلا عاصمة المملكة ، وعين أحـد المعارضـين (ابـن أخـت الملك) ملكاً تحت سيطرة المماليك . غير أن ذلك لم يدم طويلاً ، إذ سـرعان مـا أعـاد الملك المقري سيطرته بعد رحيل جنود المماليك ، وأرسل رسله في طلب الصلح . وفي عام **715 ـ 716** هـ **1315 ـ 1316** م أرسـل المماليـك حملـتين أخـريين ، تمكنتـا مـن السيطرة علـى دنقـلا . وعـين ابـن أخـت الملـك ــ الـذي اعتنـق الإسـلام ــ ملكـاً علـى المقرة منهياً بذلك عهد الملوك المـسيحيين ، وبـدأ تـاريخ المملكـة الإسـلامي في بدايـة القرن الثامن الهجري (14م) ، فانفتح الباب أمام هجرات المسلمين جنوبـاً . وبعـد ذلـك بنحو خمسين سنة أغار بنو كنز على دنقلا وخربوها ، فكان ذلك بدايـة النهايـة للـسلطة المركزية في الجزء الشمالي من السودان .

ولما كان معظم المهاجرين من البدو ، فقـد اتجهـوا نحـو وسـط الـسودان حيـث المراعي والمياه ، وكانت تلك المناطق لا تزال تحت سيطرة مملكة علوة المسيحية التي وصفها ابن سليم في القرن الرابع الهجري (10م) بأن بهـا « مبـان جميلـة وأراض واسـعة وحـدائق . وبهـا عـدد كـبير مـن الأديـرة والكنـائس الـتي تحتـوي علـى الكـثير مـن الذهب . وملكهـا أكثـر ثـروة مـن ملـك المقـرة ، وجيـشه أكـبر وأقـوى وأرضـه أكثـر خـصباً مـن أرض المقـرة وأكـبر مـساحة» . ثـم وصـفها أبـو صـالح في القـرن الـسابع الهجري (13م) قبل نحو عام من إسلام ملوك المقرة بأنها « مملكة واسعة لملكها جـيش

(1) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ص8 ، النويري نهاية الأرب في فنون الأدب 223 الحاشية .

(2) J.S. Trimingham. Islam in Africa. p. 69.

كبير وبها أربعمائة كنيسة ، كل سكانها مسيحيون يعاقبة»[1] .

وبعد إسلام ملوك المقرة تركزت هجرات المسلمين نحو علوة ، نسبة لخصوبة أرضها وكبرها ولمراعيها الغنية ، ومن الممكن تصور حالتها ، وقد أحاط بها المسلمون من الشرق ، حيث احتل المماليك سواحل البحر الأحمر ، وتدفق المسلمون نحوها من الشمال والغرب . ذكر الرحالة البرتغالي الفارز الذي كان في أثيوبيا بعد عقدين من سقوط علوة « أن سكانها ليسوا بمسيحيين ولا مسلمين ولا يهود ، وكانوا يتطلعون لكي يكونوا مسيحيين» وذكر أنه قبل سقوطها ، أرسل ملكها إلى ملك الحبشة يطلب منه إمداده بقس لكنيسته ، غير أن طلبه لم يجد الإجابة لحاجة كنيسة أثيوبيا نفسها للإمداد [2] .

يتضح من ذلك أن الإسلام قد بدأ يتسرب بالتدرج في أراضي مملكة علوة ، ويبدو أن المملكة لم تتصد لذلك بالقوة ، لأن المصادر لم تشر إلى مثل ذلك الصراع الذي حدث بين المسلمين ومملكة المقرة . وقد استمر ذلك التغلغل السلمي للمسلمين في أراضي علوة لأكثر من مائة سنة ، أحكم المسلمون فيها القبضة على أطراف المملكة الشمالية . وفي نفس الوقت تمكنت جماعة أخرى من السكان المحليين ــ الفونج غير المسلمين ـ من تطوير مؤسساتهم السياسية ، وسيطروا على أراضي المملكة الجنوبية الخصبة الواقعة بين النيلين الأزرق والأبيض .

ويبدو أن حدود مملكة سوبا قد انحصرت في حدود موقع الخرطوم الحالية . ويرى بعض المؤرخين ـ خلافاً لما هو شائع ـ أن المسلمين في الشمال اتحدوا تحت قيادة عبد الله جمّاع ــ العبدلاني ــ وتمكنوا من إسقاط المملكة في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري (15م) ثم حدثت المواجهة بينهم وبين الفونج ، وانتهت بهزيمتهم عام 910 هـ / 1504م فتكونت بذلك مملكة الفونج التي اتخذت سنار عاصمة لها ، وخضع لسلطتها تحالف المسلمين في الشمال في نظام إدارة لا مركزية ، حكم بمقتضاه العبد لاب مناطق الشمال تحت سلطان الفونج ، بينما حكم الفونج مناطق النيل الأزرق والأبيض ، بالإضافة إلى منطقة الشرق وكردفان[3] .

---

(1) J.S. Trimingham. Islam in Africa. p 73-74.

(2) Ibid. p 77.

(3) Y.F. Hasan and B. A. Ogot, “The Sudan 1500-1800” in B.A. Ogot (ed.) eneral History of Africa. Vol. V

هذه المقدمة التاريخية للممالك المسيحية في السودان ضرورية للوقوف على حقيقة دخول الإسلام في السودان ، خاصة أن انتشار الإسلام ودخول الطرق الصوفية في السودان قد صاحب تلك الأحداث ، إذ لم يتمكن المسلمون من الانتشار داخل السودان، إلا بعد اعتناق ملوك المقرة الإسلام عام 716 هـ / 1316م ، وذلك بسبب الحجر الذي فرضه ملوك المقرة على الأجانب ، ومنعهم من تعدي الشلال الثاني جنوباً إلا بإذن من الملك كما ذكر ابن سليم الأسواني[1].

ويبدو طبيعياً أن ينتشر الإسلام بين سكان المقرة بعد إسلام ملوكهم ، وتدفق هجرات المسلمين ــ الوافدين من الشمال ــ إلى الداخل ، واختلاطهم بالسكان المحليين . ويشير المؤرخون إلى أن عدد المسلمين خلال القرنين اللذين سبقا سقوط علوة ، ازداد بدرجة كبيرة لانتشار الإسلام سريعاً بين السكان المحليين ، وتمكن المسلمون من بسط نفوذهم ، وعن طريق مصاهراتهم للأسر الحاكمة والزعامات المحلية ، لأن السلطة تنتقل إلى ابن البنت وفق التقاليد المحلية . وأصبح نفوذ المسلمين واضحاً في قيادتهم الحلف الذي أسقط مملكة علوة ، إلا أنهم لم يتمكنوا من هزيمة الفونج فخضعوا لهم .

أما مملكة الفونج فقد سادت فيها الوثنية ، كما لاحظ ذلك الرحالة داود روبيني الذي زار المملكة 929 هـ / 1522 ــ 1523 م ، وذكر أن الملك عمارة ــ أول ملوك الفونج ـ كان مسلماً[2] ، وتذهب بعض الروايات إلى أن ازدياد الضغط الإسلامي ، خاصة بعد وصول العثمانيين مصر وسواكن ، وامتداد حدودهم جنوبي مصر حتى الشلال الثالث ، قد أدى إلى إسلام الملك عمارة السريع ، ليعمل على وقف الزحف العثماني نحو بلاده . فقد نمى إلى علم الملك أن العثمانيين يخططون لغزو مملكته . فأرسل رسالة إلى السلطان العثماني يخبره فيها بأنهم مسلمون ، وليس هنالك مبرر لغزوهم . وقد أعدت له شجرة نسب تلحقه بالأمويين ، أرسلها أيضاً مع الرسالة [3].

Africa from the Seventeeth to the Eighteenth Century. UNESCO 1992, p. 172.

(1) ابن سليم الأسواني ، كتاب أخبار النوبة ص93 .

(2) Y.F. Hassan and B.A. Ogot, Ibid.

(3) عبد القادر محمود ، الفكر الصوفي في السودان ، مصادره وتيارته وألوانه ، القاهرة ، دار الفكر العربي 1968 ص39 .

دور الصوفية

أطل القرن التاسع الهجري على السودان ، وقد بدأ الإسلام يوطد أركانه في المناطق الشمالية وبدأ يزحف نحو الوسط بعد إسلام ملوك المقرة . وبقيام مملكة الفونج الإسلامية في مطلع القرن العاشر الهجري (16م) ، أصبح السودان ميداناً بكراً لنشاط حاملي راية الإسلام دعاة ومدرسين . فقد ذكر محمد النور ضيف الله (المشهور بود ضيف الله (ت 1224هـ / 1809م) مؤلف كتاب الطبقات في ترجمته للولي الصالح الشيخ محمود العركي ، الذي عاصر أول قيام دولة الفونج الإسلامية : « وهو أول من أمر الناس بالعدة وكانت المرأة قبله يطلقها زوجها ، ويزوجها في يومها أو ثانيه »[1].

وكان العلماء والصوفية هم أولئك الرواد الأوائل الذين قاموا بنشر الإسلام ، وبث تعليمه ، والمتصفح لكتاب الطبقات يلاحظ ذلك بوضوح . وقد بدأت تلك الجهود في وقت مبكر قبل سقوط مملكة علوة المسيحية ، فقد وصل الشيخ غلام الله بن عائد اليمني في منتصف القرن الثامن الهجري (14م) واستقر في دنقلا . فقد اشتهر غلام الله بخدمة العلم وتناسل من ذريته الكثير من العلماء والأولياء ، قاموا بنشر العلم في كثير من مناطق السودان ، ومن أشهرهم الأئمة الزاهدون الورعون ، أولاد جابر الأربعة الذين اشتهروا بالعلم ، وفتحوا عدداً من الخلاوي للتدريس في آخر القرن العاشر الهجري (16م) بين دنقلا ومروي . وروي أن أحدهم ، وهو عبد الرحمن البولاد تخرج على يديه أربعون من الأولياء والأقطاب[2].

ويبدو أن الطريقة الشاذلية كانت أول الطرق دخولا في السودان ، فقد ورد أن الشيخ حمد أبو دنانة ـ صهر الشيخ عبد الله بن محمد بن سليمان الجزولي مؤسس الطريقة الشاذلية بالمغرب ـ قدم السودان في القرن التاسع الهجري (15م) ، واستقر إلى الجنوب من بربر[3]. غير أن الدور الكبير للصوفية بدأ بدخول الطريقة القادرية على يد الشيخ تاج الدين البهاري البغدادي ، ويرجح أن تاريخ قدومه كان عام **974** هـ / 1566م ، مكث تاج الدين في السودان سبع سنوات ، أخذ عليه الطريقة خمسة رجال ، وقيل

---

(1) محمد النور ضيف الله ، كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان ، تحقيق يوسف فضل حسن ، ط3 الخرطوم ، دار جامعة الخرطوم للنشر 1985 .

(2) نفسه ص45 ، 215 ، 250 .

(3) نفسه ص3 .

أربعون ، منهم الشيخ عجيب شيخ العبدلاب حكام مناطق شمال السودان .

وقد انتشرت الطريقة القادرية في جميع أنحاء السودان ، ويبدو أن التسامح والمعايشة كانتا السمة الواضحة لأتباع الطرق الصوفية ، بل إن الجمع بين أكثر من طريقة واحدة كأسلوب للعبادة ، كان متبعاً . ففي ترجمته للشيخ خوجلي (ت1055هـ / 1645م) ذكر مؤلف الطبقات أن أصل طريقته قادرية ، والأوراد والأذكار شاذلية[1]. وقد تضافرت جهود أولئك الرواد الأوائل في بث تعاليم الإسلام، والقيام بخدمة الناس ، خاصة فيما يتعلق بعلاقاتهم بالسلطات الحاكمة .

وكانت التربية والتعليم هما الميدان الأساسي لعمل المتصوفة ، ويبدو ذلك واضحاً من الإجازة التي حررها القطب الرباني ، والغوث الصمداني شيخ الإسلام والمسلمين ـ كما يصفه مؤلف الطبقات ـ عبد الرحمن بن جابر سنة 982 هـ / 1574م للشيخ إبراهيم ولد أم رابعة التي جاء فيها : « الشيخ إبراهيم بن أم رابعة استحق السيادة والإمامة عندي ، فجعلته قطباً في مكانه ولسانه في عصره وترجماناً في أوانه ومربياً للمريدين وقدوة للمسترشدين وملجأ للفقراء والمساكين ، مظهر شمس المعارف بعد غروبها ، فأذنت له في كل ما حققه ونقله وسمعه مني أن يفشيه ويعلمه للناس . . . » [2].

يتضح من هذه الإجازة أن واجبات الشيخ : التربية والقدوة الحسنة والتعليم ، وأن يكون ملجأ للفقراء والمساكين بإيوائهم ورعاية مصالحهم الدنيوية ، وكانت المهام الأولى تتم في مكانة إقامة الشيخ ، والمهمة الثانية تتم بملاحقة مصالح العامة لدى الحكام والملوك بالتحدث نيابة عنهم ، ورفع مظالمهم والتوسط لدى أولي الأمر في قضاء حوائجهم ، فعمل المتصوفة إذاً ذو شقين ، أحدهما التدريس والتربية الروحية، والثاني الاهتمام بمصالح العامة الدنيوية .

كان ميدان التعليم هو الميدان الأكبر الذي ولجه المتصوفة ، فالدولة ممثلة في سلطتها الحاكمة لم تكن لها مسؤولية مباشرة عن التعليم ، كما جرت عليه العادة في الحكومات الإسلامية . فإذا نظرنا مثلاً إلى تكوين الحكومة الإسلامية في العصور الإسلامية المبكرة ، وجدنا عشرات الدواوين (الوزارات) مثل ديوان الخراج والجند

(1) نفسه ص165 .

(2) نفسه ص104 وانظر كذلك محمد محجوب مالك ، رواد الثقافة الإسلامية في جزيرة الفونج ، بيروت ، دار الجيل 1994 ص104 .

والرسائل والقضاء وبيت المال ولكن لم يوجد ديوان للتعليم أو للصحة . كان التعليم والصحة خدمات اجتماعية يقوم بها الأفراد ، قد تساعد الدولة في هذا المجال لكن العبء الرئيس يقع على كاهل المواطنين في المجتمع[1].

ويبدو أن السلطات في دولة الفونج قد سارت على ذلك المنهج ، فلم تكن الدولة مسئولة عن التعليم ، وكان المجتمع الإسلامي السوداني في ذلك الوقت في مرحلة التكوين فلم يكن هنالك الكثير من الأثرياء الذين يساهمون في مجالي التعليم والصحة ، فوقع ذلك العبء على كاهل العلماء والصوفية الذين بذلوا أقصى جهدهم في ذلك الميدان . وكان الحكام يمدون لهم يد العون في بعض الأحيان للقيام بتلك المهمة[2] .

قام العلماء والصوفية بالتدريس في مناطق استقرارهم التي أطلق عليها الزرائب مفردها زريبة ، كما تطلق الزريبة أيضاً على المكان الذي تجمع فيه الماشية داخل مناطق استقرار العلماء والصوفية . ويطلق على مكان التدريس داخل الزرائب اسم الخلوة ، وغالباً ما يوجد عدد من الخلاوي في الزريبة وفقاً لمستويات الطلبة الدراسين وتنوع دراساتهم .

كما تطلق الخلوة أيضاً على المكان المنعزل الذي يخلو فيه الشيخ بنفسه للعبادة، وكان حجم الزريبة يعتمد على شهرة وسمعة وثراء صاحب الزريبة . ففي بعض الأحيان يكون حجم الزريبة مثل حجم القرية الكبيرة .

فقد ورد في ترجمة حسن ولد حسونة أنه كان واسع الثراء يشتغل بالتجارة ، وله

(1) كان بعض الخلفاء وبعض الحكام يقومون بإنشاء المدارس والصرف عليها ، كما بدأ الحكام البويهيون بفتح مدارس تصرف عليها الدولة (المدرسة النظامية) في القرن الخامس الهجري ، إلا أن التعليم ظل بصورة أساسية خدمة اجتماعية أكثر منه مسؤولية حكومية .

(2) تهتم هذه الدراسة بجهود الصوفية في التعليم فقط . غير أن الصوفية قاموا بدور واضح في مجال معالجة المرضى فقد كانت لهم معلومات قيمة في هذا المجال اكتسبوها من المؤلفات الكثيرة في الطب النبوي بصورة خاصة والطب بصورة عامة . فقد ذكر صاحب الطبقات أن حجازي بن أبي زيد " كان طبيبا ماهرا كأنه ابن سيناء في حكمته ، وشاعرا حاذقا كأنه كعب بن زهير في شعره ، وله معرفة بالخط الحسن كأنه ابن مقلة في خطه . ويعرف جميع الأقلام العبرانية والسريانية . وله معرفة بصناعة الكيماء ، كأنه جابر في صناعته ، وله معرفة بعلم الجفر والزايرجة يدرك بها الأمور المسبقلة كأنه جعفر الصادق في أخباره ، ومع ذلك يقرأ القرآن والدلائل ويبكي بأعلى صوته لا يبالي بمن حضر أو غاب " .كتاب الطبقات ص107 .

خمسون عبداً مسلحاً ، يبدو أنهم كانوا يقومـون بحراسـة تجارتـه ، وكانـت لـه زريبتـان للمواشي للذبح اليومي . وكان عدد خلوات التدريس ما بين 11 أو **13** خلـوة كـل خلـوة بطلبتها ، وكان يذبح لكل خلوة شاتين في اليوم[1]. وقد وصف موكب الشيخ حـسن إلى سنار لمقابلة الملك بأنه موكباً كبيراً ، عندما بلـغ مـدخل المدينـة خـرج القاضـي وقـادة الجيش للقائه ، وعندما رأى الملك الموكب قال « : هذا فقيه أخذ ملكنا »[2].

قد يعطينا هذا الوصف صورة لحجم الزرائب ، ومن بها من الدارسين والمريـدين وما بها من مباني وغيرها من مستلزمات الحياة ، فمعظم الزرائـب كانـت بهـذا الحجـم، فعلى سبيل المثال ذكر صاحب الطبقات أن الشيخ الـزين ابـن الـشيخ صـغيرون « قطـب الوجود والبركة . . . بلغ عدد طلبته ألف طالب وتلامذته صاروا شـيوخ الإسـلام» وبلـغ عدد طلبة كل من الشيخ محمد ولد نصر والشيخ باسبار السكري والشيخ عيسى ولد كنو ألف طالب . وعدد طلبة الشيخ أرابا ولد عون بلغ ألف طالب ونيفـاً مـن دار الفـونج إلى دار بونو ، وتلامذته هم شيوخ الإسلام ، وبلغ عدد طلبة الشيخ القدال ألـف طالـب وقيـل ألفان ، وكان للشيخ عبـد الله بـن أحمـد يـدرس بـاللغتين العربيـة والحلنقيـة وقـد درس « خلائق لا تحصى »[3].

كان أولئك المشائخ يدرسون علوماً متنوعة ، لكنهم اشتركوا جميعـاً في تـدريس القرآن . وكان « تحفيظ القرآن يتم عن طريق الكتابة لا عن طريق التلقين وتعلم التهجي يسبق تعلم القرآن »[4]. وقد اشتهرت بعض المـدارس في تـدريس علـوم معينـة ، فعلـى سبيل المثال اشتهرت مدرسة الشيخ القدال بتدريس الفقه والعقائـد والتفـسير والحـديث ، ومدرسة الشيخ ودكنو بالعلوم العربية والمنطقية ، ومدرسة أرباب ولد عون بعلم التوحيد والتصوف[5].

ويتضح من تراجم كتاب الطبقات وجود عدد كبير من الزرائب في المناطق الـتي ركز عليها المؤلف في تراجمه ، وهى الجزء الشمالي من الجزيرة وشمالي النيل الأزرق والمنطقـة الممتـدة بـين الخرطـوم ودنقـلا ، وتعـرض للقليـل مـن العلمـاء والمتـصوفة

(1) محمد النور ضيف الله ن كتاب الطبقات ص133 .
(2) نفسه ص145 .
(3) نفسه الصفحات 73 ، 80 ، 89 ، 100 ، 108 ، 280 ، 281 .
(4) محمد محجوب مالك ، وراد الثقافة الإسلامية في جزيرة الفونج ، بيروت دار الجيل 1994 ص31.
(5) محمد النور ضيف الله ، كتاب الطبقات 82 ، 100 ، 280 .

في منطقتي النيل الأبيض وشرق السودان ، وأقل من ذلك في غرب السودان . ورغم ذلك فقد بلغ عدد من ترجم لهم 270 شيخاً واضعين في الاعتبار ما ذكره محقق كتاب الطبقات من أن المؤلف لم يتناول تراجم كل المشائخ في هذه المناطق ، فهو لم يذكر حتى بعض مشاهير المشائخ الذين لازالت قبائلهم قائمة حتى الآن . يعطينا هذا الرقم (270) فكرة عن عدد الزرائب وعدد الدارسين فيها ، آخذين في الاعتبار أن كل الزرائب لم تكن بذلك الحجم ، وأنه لم يكن لكل واحد ممن ترجم له زريبة ، فالزريبة يتوارثها الأبناء عن الآباء .

وكان التوزيع الجغرافي للزرائب التي تعرض لها كتاب الطبقات مغطياً لكل المنطقة التي تناولها . وهذا يعني انتشار الكثير من المدارس التي قد يربو عددها عن المائة مدرسة في مناطق الجزيرة والنيل الأزرق ونهر النيل حتى دنقلا . وكان أغلب مؤسسي تلك المدارس أغنياء ، قاموا بالصرف على زرائبهم . وكان لأغلبهم علاقات قوية بملوك سنار وشيوخ العبدلاب ، وغيرهم من الحكام الذين ساعدوا كثيراً في الصرف على تلك الزرائب ، بما يقدمونه من الهدايا والمؤن[1].

وقد أورد صاحب الطبقات ما يوضح ثراء الكثير من أولئك الشيوخ ، فقد رأينا ثراء الشيخ حسن ولد حسونة ، وورد ثراء آخرين مثل الشيخ صغيرون والشيخ خوجلي ابن عبد الرحمن والشيخ النور وابنه الشيخ زيادة والشيخ محمود بن عويضة والشيخ مضوي بن بركات[2]. وكانت مظاهر تلك النعمة تظهر على كثير من أولئك المشائخ المتصوفة ، فقد ورد أن الشيخ خوجلي « كان يلبس الثياب الفاخرة مثل البصراوي والأخضر ، وعلى رأسه الطربوش الأحمر ويتعمم بالشيشان الفاخرة . . . ويتبخر بالعود الهندي ويتعطر بجعل الزباد الحبشي في لحيته وثيابه »[3]. وقد لبس الشيخ موسى ولد يعقوب ـ إمام علم الظاهر والباطن ـ الفاخر وركب الهجن والخيل

(1) محمد النور ضيف الله ، كتاب الطبقات ص83 ، 351 ، إبراهيم عبد الدافع ، الذيل والتكملة لطبقات ود ضيف الله ، تحقيق إبراهيم أبو سليم ويوسف فضل حسن ، جامعة الخرطوم ، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية 1982 ص39 ، 83 .

(2) محمد النور ضيف الله ، كتاب الطبقات الصفحات 73 ، 80 ، 217 وانظر كذلك إبراهيم عبد الدافع ، الذيل والتكملة ... ص96 ، 107 ، 110 .

(3) محمد النور ضيف الله ، كتاب الطبقات ص190 .

ومشط رأسه وجعل له قصة وهكذا اشتهر »[1].

وقد تمتع الشيوخ باحترام الجميع وبمكانة عالية ورفيعة في مجتمعاتهم ، فكـانوا يقومون بحل المشاكل والخلاف بين الأفراد والقبائل ، ويقدمون النـصح والعـون باعتبـار ذلك واجباً وخدمة ينبغي تقديمها للنـاس . وكـان الأمـن والطمأنينـة وانـضباط الـسلوك يسودان الحياة في الزرائب والمناطق المجاورة لها . وكانت السلطات الحاكمة تسعى إلى اكتساب رضاء الشيوخ لأن ذلك يعني حل الكثير من المشاكل ، وتـسهيل العمـل الإداري للحكام .

كما كان لهم وضع خاص واحترام كبير من الملوك ، والحكام الذين كانوا يجلون ويقدرون المشائخ . وقد صاهر بعض أولئك الشيوخ ملـوك سـنار ومـشائخ العبـدلاب ، فقد تزوج الشيخ عبد العزيز بعض بنات ملوك سنار ، وكـان لـه دخـل ثابـت مـن ماليـة الدولة[2]. وكان لـبعض الملـوك والحكـام علاقـات شخـصية بـبعض الـشيوخ ، فكـانوا يقومون بزيارتهم ويستشيرونهم في شؤونهم الداخلية والخارجية ، فقد قتل الـشيخ حمـد النجـيض في الحـرب الـتي دارت بـين العـبلاب وملـوك الفـونج ، وكـان الـشيخ مؤيـداً للعبلاب . وقام بعض الشيوخ بمهمة الأطباء لبعض الملوك وذوي الشأن في الدولة[3].

ذكر صاحب الطبقات ـ على سـبيل المثـال ــ أن الأهـالي اشـتكوا للـشيخ القـدال عدم مقدرتهم على استضافة عساكر الملك وفقـاً للإجـراءات المتبعـة ، لأن أحـوالهم في ذلك الوقت لم تكن تسمح بذلك ، رفع القدال ذلك الطلب إلى الملك الذي وافق عليه[4]، وكان الشيخ حمد بن المجذوب « كثير الشفاعة لا ترد له شفاعة » ، ودخل الشيخ إدريس ولد الأرباب 71 مرة على الحكام في مصالح المسلمين[5].

الخاتمة

عندما تـذكر الـصوفية ، ينـصرف الـذهن مباشـرة إلى الزهـد والعزلـة والتقـشف والعزوف عن مطالب الدنيا ، ويمكن ملاحظة هـذه الـسمات في اتبـاع الطـرق الـصوفية

(1) إبراهيم عبد الدافع ، الذيل والتكملة ص105 .
(2) محمد النور ضيف الله ، الطبقات ص108 ، 217 ، إبراهيم عبد الدافع ، الذيل والتكملة ص99 .
(3) محمد النور ضيف الله ، كتاب الطبقات ص208 ، 213 ، إبراهيم عبد الدافع ، الذيل والتكملة ص57 .
(4) محمد النور ضيف الله ، كتاب الطبقات ص80 .
(5) نفسه ص61 ، 80 .

للمجتمعات الأفريقية جنوبي الصحراء ، لكنها لم تكن السمة البارزة ، بل على العكس من ذلك تميزت الصوفية في مجتمعات جنوبي الصحراء بأنها كانت عنصراً فاعلاً وإيجابياً ، وقامت بإدارة دفة الحياة في تلك المجتمعات . وتمتع رجال الصوفية بمكانة مرموقة فكانوا هم الحكام والقضاة وقواد الجيوش ، وقاموا بمهام التربية والتعليم، وكانوا الملاذ الذي يلجأ إليه الناس وقت الشدة للمساعدة على نوائب الدهر .

ولذلك ارتبط تاريخ مجتمعات أفريقيا جنوبي الصحراء في القرون الأربعة الماضية ارتباطاً وثيقاً بالطرق الصوفية ، لدرجة أصبح من العسير فهم تاريخ تلك المنطقة ـ خاصة بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر الهجريين (17 ـ 19 م) ــ دون الرجوع إلى تأثير الطرق الصوفية . فدراسة الصوفية تمثل المفتاح لفهم طبيعة تغير وتطور البنيان السياسي والثقافي لمجتمعات أفريقيا جنوبي الصحراء في تلك الفترة .

ويلاحظ أن الهدف الذي كانت الطرق الصوفية تسعى إلى تحقيقه في مجتمعات أفريقيا جنوبي الصحراء ، هو نشر الإسلام وإعادة بناء المجتمعات الإسلامية على الأسس القويمة ، ولذلك قامت الزرائب بمهمة التربية والتعليم ، وقام الشيوخ بدورهم السياسي والاجتماعي ، فأسسوا الدول الإسلامية التي اتخذت تجارب الدول الإسلامية المبكرة نموذجاً ، فاتخذوا لقب أمير المؤمنين ، ومن ناحية أخرى قاد أولئك المشائخ حرباً ضروساً ضد المستعمرين منذ القرن الحادي عشر ، وحتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري (17 ـ 19م) حيث انهارت مقاومتهم أمام تطور أسلحة المستعمر .